قراءة في نص انعطافة لعصام الشريف

هيفاء حمَّاد، سوريا

انعطافة[23]

عند الانعطافة تزاحم السائرون، أشارت أيديهم لاتجاهات، واحد فقط أكمل طريقه، لم أكن أنا.

الانعطاف أياً كان سياسياً، دينياً، اجتماعياً، ثقافياً...إلخ هو انحراف ونقطة تحول عن المسار. وقد نمر في الحياة بانعطافات كثيرة لا سيما على الصعيد الشخصي، منها ما يكون نقطة تحول جذري تنقلنا من حال إلى حال. ومنها ما يكون تحولاً عادياً ومحتملاً وقد يكون منتظراً أيضاً.

بعض الانعطافات قد تكون عودة إلى الخلف والتفاف حول الذات. وهنا تكمن بعض نقاط الضعف عند الأشخاص. وقد تكون الانعطافات على مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع أو البشرية جمعاء. ولكن ما يكون منها على مستوى المجتمعات فلا بد من أن يكون سببها الحروب أو الثورات والتغيرات الجذرية التي تصيب المجتمع برمته.

وهنا في هذا النص الذي أمامي للأستاذ عصام الشريف أرى أن الانعطافة عنده هي انعطافة على مستوى أفراد أو فئة معينة قد تكون ثورة.

[23] عصام الشريف. أطياف ومرايا. الكتاب الرابع في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، مايو 2015. ص 41.

وقد تكون مجرد تظاهرة. فقد عنون الكاتب نصه بكلمة انعطافة والانعطاف: تغيير مفاجئ في منحى الجبل، انعطاف الطريق: النقطة التي يتعرج فيها. وهنا الراوي لم يشر إلى انعطافة جبل أو طريق وبالتأكيد هي ليست كذلك وإلا لكان أشار عليها بكلمة. وإنما جاءت كلمة الانعطافة معرفة بالألف واللام.

إذاً هي انعطافة معلومة للراوي يعرفها تماماً ويشير إليها بعينها ناقلاً لنا الحدث الذي صار عندها، فهو لم يخبرنا بأي شيء قبل تلك الانعطافة ولكن كلمة السائرون تدل على أنه كان هناك مسيرٌ. ولكن أين يمكن أن يتزاحم السائرون؟ إن لم يتزاحموا في الطريق، أين يمكن أن يتزاحموا؟ عادة يحدث التزاحم في التجمعات البشرية الكبيرة كالاحتفالات والمهرجانات والتظاهرات والثورات وإلى ما هنالك. وهذا كله يحدث في الطرقات. إذاً لعل لحظة التزاحم كانت أمام مبنى حكومي أو أحد المرافق العامة أو الخاصة. فما داعي التزاحم؟ لعل السائرين يمشون بشكل عفوي أو فوضوي دون تنظيم مسبق مما أدى إلى ارتباكهم وتزاحمهم عند الانعطافة. وربما هم منظمون إلا أن النسق الأول تباطأ في المسير (وقد تكون الأنساق الأولى جميعها) دون أي إشارة لذلك لما يليه من أنساق. فبقيت تلك الأنساق تمشي بنفس سرعتها التي تسير بها منذ البداية. ولابد أنه على علم مسبق بالمسار الذي يمشون عليه ويعرفون أنهم سيواجهون شيئاً ما يكون عثرة في مسارهم

مما أدى لتباطئهم ومنه إلى التزاحم والتدافع؟ لعله ذلك ولعلهم عند وصولهم إلى الانعطافة أراد الجميع أن يكون في المقدمة فحدث التدافع. أو أن من كان في المقدمة خشي متابعة المسير بعد الانعطافة فحاول التراجع فأحدث تزاحماً. احتمالات كثيرة هنا يمكننا أخذها بعين الاعتبار للتزاحم الذي حدث.

وبالانتقال إلى الجملة الثانية (أشارت أيديهم لاتجاهات) يتبين لنا أن أولئك يسيرون دون أي مخطط أو اتفاق مسبق أو قيادة مدركة لواقع المسير وما سيواجهونه من عثرات أو مشاكل أو انعطافات. فلعلهم اجتمعوا محض الصدفة في ذلك المسار، وعندما وصلوا إلى الانعطافة تزاحموا لعدم معرفتهم بالاتجاه الصحيح. وربما جاء مسيرهم ردة فعل (ثورة) دون تنظيم أو تخطيط ضد أحد ما أو ضد قانون ما فرض عليهم؟ لعله ذلك؟ فكلمة اتجاهات بمجيئها نكرة دليل على عدم معرفتهم بها، فهي كثيرة وليست واضحة المعالم وإلى أين سيصل بهم كل اتجاه؟ ولعل هذا ما جعلهم يشيرون إلى عدة اتجاهات. فهم على ما يبدو تفاجؤوا بهذه الاتجاهات ولم تكن بالحسبان لا سيما وأن مسيرهم غير منظم.. وبالطبع كلمة اتجاهات ليست بالضرورة الاتجاهات الجغرافية المعروفة. وإنما هي إيحاء لاختيارات عديدة وضع السائرون أمامها. وقد يكون السائرون يعرفون بعضهم قبل المسير وهم يسيرون بنية واحدة وهدف واحد غير واضح في النص.

ولكن ما هذه الانعطافة التي واجهتهم وجعلتهم متفرقين أو مختلفين في الرأي؟ فإشارة كل منهم إلى اتجاه دليل أن تلك الانعطافة استطاعت تفرقتهم حتى ولو أنهم متفقون منذ بداية المسير. هل النسق الأول لاحت له أشياء غير متوقعة من تلك الاتجاهات؟ ولعله هو من بدأ بالتباطؤ منذ وصوله الانعطافة، وإلا لما حدث التزاحم. هل لاح في تلك الانعطافة تغيير لهم نحو الأفضل على مستوى حياتهم الشخصية مما أدى لتباطئهم في المسيروعدم المتابعة؟ وهذا ما استدعى تزاحم السائرون؟ فإن كان ذلك فيالخيبة السائرين! فلم يجيدوا اختيار قادتهم وقد ساروا في المسار الخاطئ حتى ولو لم تكن هناك انعطافة. ففي جميع الأحوال هكذا قادة لا تمثل مصالح العامة ولا تعنيها غير مصالحها الشخصية. وسيكون من تبعهم هو الخاسر الوحيد في المسار. وليس سوى مجرد وسيلة لهم للصعود على أكتافه. وحتى لو كان سبب التزاحم تراجع النسق الأول تحسباً للنتيجة فهذا أيضاً خيبة أمل لمن تبعهم. ففي جميع الحالات عند اختيار القادة يجب الحذر واختيار من هو مؤهل لتحمل المسؤولية مهما كانت النتائج. أما إن كان التدافع جاء من الخلف فياللمصيبة! فالكل يريد القيادة ومن أين له الشعب؟

وهناك احتمال قد يكون وارداً وهو حب الإطلاع والحشرية من الأنساق الأخيرة، فبمحاولتهم التقدم إلى الصفوف الأولى أحدثوا تزاحماً دون وعي. وأيضاً ياللمصيبة! فهم غير واثقين بقادتهم وإلا لسلموهم زمام الأمور وكانوا

واثقين من قيادتهم وحكمتهم في التصرف. ومن يدري لعل البعض منهم استحلى القيادة فحدث ما حدث.

(واحد أكمل طريقه) من بين كل أولئك السائرون واحد فقط يكمل طريقه. كيف ذلك؟ لعله لم يكن معهم منذ البداية وإنما هي الصدفة من جمعته بهم فوجد بين المتزاحمين رغماً عنه؟ وها هو يتركهم ويكمل طريقه لأنه يعرفه جيداً. وربما هو الأقوى بينهم وهو أول من خرج بالمسير فدب الحماس في قلوب الآخرين وبدؤوا ينضمون إليه شيئاً فشيئاً. وهو منذ البداية كان على معرفة بتلك الانعطافة ولكنه لم يخشها وهو واع لما سيؤول إليه ذلك الطريق الذي اتخذه مساراً فأكمل طريقه ولم تثنه الانعطافة عن متابعة نفس الطريق؟ وربما هو فاقد للعقل، مجنون ولا يدرك ماذا يفعل؟ أو لعله من النسق الأول الذي تباطأ عند الانعطافة وكان تباطؤه خيانة للسائرين؟ فهو يعرف إلى أين هو ذاهب وإلى أين سيصل ويعرف كل الاتجاهات وما سيؤول إليه كل اتجاه ولكنه كان بحاجة إلى أولئك السائرون ليكونوا ورقة بيده أمام ما ينتظره عند الانعطافة؟ وها هو وصل إلى مبتغاه على أكتافهم وهم من أوصلوه بأيدهم وها قد أكمل طريقه.

إذاً الانعطافة ليست بالضرورة نقطة تعرج وإنما هي نقطة تحول. والاتجاهات هي مسارات وخيارات لأولئك السائرين..(لم أكن أنا) في نهاية النص نرى الراوي يقحم نفسه في النص نافياً تماماً أنه لم يكن هو من أكمل

طريقه وهذا أيضاً يأخذنا إلى عدة احتمالات فلعل الراوي لم يكن مع أولئك المتزاحمون وهو يؤكد لنا ذلك. وربما كان معهم منذ بداية المسير ولكنه كغيره سائر وفقط. وربما أنه كان يتمنى أن يكون هو ذلك الشخص الذي أكمل طريقه فالراوي معجب به لأنه يعرف ما يريد. وهو لا يمتلك الجرأة الكافية ليكون كذلك. والاحتمال الأكبر هنا وبما أن الراوي كان خارج النص منذ البداية ولم يظهر إلا في نهايته فهذا دليل أن ذلك الشخص الذي أكمل مسيره قد خالف السائرين ومضى بنفسه ولمصالحه الشخصية التي سعى إليها على أكتاف غيره وهاهو قد وصل. والراوي ينفي عن نفسه الجنون أو الخيانة والانتهازية التي امتاز بها الكثيرون في أيامنا هذه حيث تصعد فئة على حساب أخرى وأشخاص على أكتاف أشخاص بدعوى أنهم يمثلونهم ويجسدون رؤيتهم.